

صور الذات في "محكي الحياة" "الحافلة رقم 32" لعبد الله ساعف :

عثماني الميلود

1-تقديم :

إذا كان الأستاذ عبد الله ساعف قد جعل من السيرى تعلقة لكتابة جزء من واقع الأحياء الجنوبية- الغربية لمدينة الرباط، وجعل من أمثلة الحافلة، محركا للتنقل المادي والنفسي والثقافي، فإننا، من زاوية تخصصنا، سنلاحق هذه التعلقة في ذاتها، أي كما لو أن الأستاذ ساعف روائي أو قاص أصلا، هدفه صياغة عوالم حكاية تعج بقيمها وصورها ومقولاتها. إن اختيار السرد (سيرة كان أو ترجمة أو حكاية أو قصة قصيرة أو رواية أو محكي الحياة) ليس بالتقليد الجديد في مجال العلوم الاجتماعية لا كونيا ولا محليا (جاك بيرك في ترجمته لأحمد بن عليوة أو اليوسي في كتابه "اليوسي أو مشكلة الثقافة المغربية) أو سيرة اليوسي مع كليفورديغريتر، أو دليل إيكلمان في كتابه "المعرفة والسلطة" أو "علي الإلغي" لعبد الله حمودي ، أو عبد الرحمن المصمودي مع أيكلمان).

إن ميل عبد الله ساعف إلى هذا الاختيار السردى ، وتأنيث عالمه بكل المواد الصالحة لأن تشيد رواية من عناصر زمنية (رغم قلتها) ومكانية وحدثية وشخصية وتحليل للبوطن، وربط للظواهر بالثقافات التي أنتجتها، هو أمر في اعتقادي المتواضع يجعل من أمثلة الحافلة 32 نصا سرديا روائيا واقعا يوفر كل عناصر الإثارة والتشويق والسحر الذي يميز أي عمل سردي قصصي. السؤال لن يكون: ماذا يحصل للسوسيولوجي حينما يكتب السرد ؟ بل سيكون ما الذي يوفره السرد لحقول معرفية أخرى سواء أكانت اجتماعية أم نفسية أم اقتصادية أم بيداغوجية أم تاريخية ؟ بمعنى ما العناصر التي يحول الخطاب السوسيولوجي دون ظهورها، في حين تتحول السردية (narrativisation) إلى كاشف لهذه العناصر غير المرئية ؟

2-جعل الحياة الشخصية محكيا :

إن المقاربة البيوغرافية باعتبارها وسيلة للولوج إلى القصة الشخصية والاجتماعية قد احتلت منزلة ملحوظة في السوسيولوجيا بغرض إثارة الانتباه إلى ظواهر تتمتع على وسائل البحث السوسيولوجي

الكلاسيكي. وهذه الصيغة الخطابية حول معنى الأحداث التي تخطط بمسيرة الحياة تشكل سندا / دعاما لممارسات مصاحبة متنامية داخل الحقل الاجتماعي. وهي طريقة لنسج روابط بين الفرد والجماعة: "إن الأوطوبيوغرافيا أو محكي الحياة (récit de vie) ليسا عودة الواقع الذي مضى، ولكنهما تمثيل لهذا الواقع المنسحب الذي يسمح لنا بالتعرف على ذاتنا والبحث عن المتزلة الاجتماعية التي تلائمنا" (حسب تعبير بوريس سوريلنك). وفي سياق المجتمعات ما بعد حديثة، فإن الفرد ليس مرتبطا بالعلامات الكبيرة المنظمة لما هو اجتماعي والتي يخضع لها الإنسان إما كخادم لله أو الملك أو الجمهورية أو الدولة أو الوطن، وذلك لأن الفرد لم يعد يجد ذاته في ذلك. وعليه فقد ظهر أن الأهم هو بناء الفرد ذاته بناءً على ما هو ذاتي، انطلاقاً من خطاب واضح وشفاف، بل محتج ومطالب: "أنا سيد نفسي". هكذا، لم يعد لمخالف الطبيعة المتعالية وللسرديات الكبرى أية سلطة على الفرد (بتعبير ج.ف. ليوتار). وفي الأدب، كان لتطور الأوطوبيوغرافيا، حسب فيليب لوجون دور الاقتراب من بناء الذات البورجوازية في العصر الحديث، حيث قال: "كن سيد حياتك"، وأضاف: "كل واحد منا مطالب بإعادة امتلاك ما هو فردي في حياته..." (ص.231).

3- الخطاب الأوطوبيوغرافي في العلوم الاجتماعية:

غزت هذه المقاربة البيوغرافية أو الخطاب الأوطوبيوغرافي حقل العلوم الاجتماعية. فقد كان محكي الحياة (باعتباره أداة للبحث في السوسولوجيا) هو ما طبع الأصل، في إطار مدرسة شيكاغو، مع صدور مؤلف "الفلاح البولوني في أوروبا وأمريكا"، سنة 1919؛ هو محكي مهاجر، لكل من ويليام طوماس وفلوريان زانيتشي. سمحت هذه الدراسة بفهم ومعرفة صعوبات اندماج المهاجرين البولنديين في شيكاغو اعتماداً على سيرة ألفها فلاديك. وهي دراسة أعطت بداية ميلاد ما سيعرف لاحقاً بالمقاربة البيوغرافية في السوسولوجيا. وعليه، فانطلاقاً من حالة خاصة وفردية، يمكن أن نحلل عينات من الظواهر الاجتماعية عجزت المناهج الكلاسيكية عن الانتباه إلى قيمتها.

4- محكي الحياة في أمثلة الحافلة 32 :

4-1: يسعى السارد في "دفاتر الحافلة" إلى تحقيق غايتين اثنتين: عرض محكي أستاذ جامعي وجد نفسه، في فترة حاسمة من تاريخ العالم العربي، دون سابق تحضير دون وسيلة نقل خاصة تقفه من مقر سكنه إلى مقر عمله، أو مقر الحزب، فقرر أن يحدث تحولاً في مسيرة حياته، في أن يستقل الحافلة كبقية الفئات الاجتماعية العاجزة عن امتلاك وسيلة نقل خاصة. وبعد أن نسجت العادة علائق حميمة بين الأستاذ الجامعي والحافلة، أصبح الاستغناء عن وسائل النقل الخاصة عقيدة واختياراً نهائياً،

والأسباب متعددة. أما الغاية الثانية، فعلمية محضة، فركوب الحافلة سيتحول إلى تلة لإعادة استكشاف جهة من الرباط، أي من المغرب، ومحاولة فهم مجريات الحياة كما تعرضها أمثلة الحافلة كأداة لتأطير حركة النقل وتشديد صورة للعالم والمجتمع كما يراد لها. كما أن الغاية هي السير على نهج باحثين سوسولوجيين قرروا أن يجعلوا من هذه الأيقونات محورا للتفكير والتحليل والتأويل، في إطار اختزال الظواهر والتغلب على سديميتها وغموضها وطابعها الفضفاض.

4-2: إن الاستعانة بمحكي الحياة وأمثلة الحافلة هو ما سيمكن الباحث السوسولوجي من الوصول إلى معرفة سوسولوجية، ومن ثمة ابتكار طريقة محددة، تنبئ بحصول قطيعة مع المقاربات الوضعانية التي تفضل التقنيات الكمية، وتعالج العلوم الاجتماعية وفق نماذج العلوم الطبيعية. هنا يتغلب السارد على الواقع المستعصي والبنيات شبه الثابتة؛ فيشرع في استعراض التجارب الإنسانية الواقعية لفئات تتركب الحافلة، والمواقف غير المصرح بها التي تشكل واقعيتها الاجتماعية الكاملة. يقول عبد الله ساعف مشخصا حالة من الانغماس والاندماج والقرب بينه وبين "مجتمع الحافلة": "إن الإشكال الذي أواجهه باستمرار يتمثل في ضرورة إيجاد طريقة أترك فيها هامشا من الحرية للمواطنين" لإبداء وجهات نظرهم، في مقابل تبادي مغبة استعمال الذاتية الحكائية كآلية للتحكم في تلك الآراء تحت ذريعة ممارسة لعبة: "عالم الإثنوغرافيا الهاوي".

يبدو أن الحكاية مبثوثة في كل مكان من الحافلة بشكل طبيعي، فمن الصعب بالنسبة لي كمسافر عابر تعديل التصريحات التي يسجلها الركاب، أو التحكم في تأويل الوقائع التي أحيها وتوجيهها وفق سياق معين، فالأمر يتطلب قدرا هاما من ضبط النفس لكي لا تنحرف وراء الوهم الذي يخلقه انطباعي وحدسي الخاص، عن معرفتي الجيدة بما يحدث. "ص18).

فالحياة الاجتماعية لن تصير حقيقية إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار الحياة الفردية التي تسكن خلف الحوادث الاجتماعية، كما يؤكد ويليام طوماس وفلوريان زانينيتشي في "الفلاح البولوني". وتتجسد هذه المعادلة، في حافلة الأستاذ ساعف، في أن محكيه تحول إلى أداة لملاحظة التجربة الشخصية الداخلية، مع فضيلة ملاحظة ما بينها وبين ذوات الآخرين من تشابه وتقارب. فما أعطاه محكي الحياة، حياة السارد ومجتمع الحافلة، من أهمية سردية أنه جعل الواقعي والحقيقي يبدو أن مألوفين لكن من زاوية ذات السارد والمحلل(انظر ص.19).

5- محكي الذات والهوية السردية :

وهكذا عبر فعل المحكي، حكي تجربة ركوب الحافلة، بشكل يومي، ولمدة معقولة جدا، شيد السارد في أمثلة الحافلة 32 هوية جديدة، ما كان يمكن أن يكتسبها لو مكث مصرا على استقلال سيارته الخاصة. هوية جعلت ذات السارد تنحرف في إطار علاقة ذات أبعاد ثلاثة :

-علاقته بذاته.

-علاقته بالعالم (أو العوالم: الأحياء الجنوبية الغربية).

-علاقته بالآخرين (سائق الحافلة، القابض، المفتشون، الركاب كجماعة، والحالات الفردية التي أفرد لها السارد وضعا خطايا وسمح لخطاياها أو هويتها بالانكشاف وبأن تكون شاهدة على جماعتها ومجتمعها وثقافتها).

يسعفنا بول ريكور كثيرا ما هنا كثيرا، فباستحضار فكرة الهوية السردية في دفاتر الحافلة، نستطيع أن نقول: إن محكي الحياة في عمل عبد الله ساعف يندرج ضمن الفعل الإنساني، فيفترض لذلك ساردا يعطي لتسلسل أحداث الحافلة معنى زمنيا. إن الهوية تشيد داخل حبكة الأحداث المعيشة يوميا، حيث السارد يقيم علائق بين أحداث مختلفة محليا وعربيا وكونيا، وهو ما أضفى على أحداث الحافلة انسجاما واتساقا تامين. وهكذا فإن النشاط السردية الذي به تتعرض علينا أمثلة الحافلة هو ما أضفى على حياة الأستاذ الجامعي ومجتمع الحافلة والصور المتفرقة من حياة الأحياء الجنوبية الغربية دلالة كبرى. إن دور المحكي، في دفاتر الحافلة حيوي ومركزي. فمن خلال تفكيك حركية النص وفعليته وتأويلهما حيث يمكن للفرد أن يتعرف قصته، ويفهم ذاتيته. يسهم فن المحكي في معرفة الذات التي هي، في آخر المطاف، إعادة تصوير للذات وتأويل للذات من خلال المحكي، فتتحول الذات إلى ذات أخرى.

وإذا كانت الهوية الخاصة لعبد الله ساعف تحيلنا إلى المحددات الأخلاقية والسلوكية التي تحدها، فإن الهوية السردية تنشأ في إطار علاقة غيرية. ولهذا نفهم لماذا رفض الأستاذ الجامعي الاستجابة لعروض طلبته في أن يقلوه، لأنه بذلك سيتعرض لما لا يريده كهوية خاصة (أستاذ جامعي)، وفضل أن يستقل الحافلة وأن يكتب مذكراته عن مجتمع مصغر ينمو أمام عينيه، حيث هو طرف وذات.

فما يربحه السوسولوجي إذا تحول إلى سارد لمحكي الحياة كثير ؛ إنتاج تصوير معين للذات، إنتاج يصير هو الآخر بلورة للذات، في إطار علائقها الانتمائية بالآخرين. وعليه فإن تحريك محكي الحياة بدل تحريك الآليات الوجودية، كأداة سمحت لساعف بمساءلة مختلف صور الذات: ذات

تحددت من خلال انخراطه الاجتماعي والسياسي والعلمي، والأسري والسلالي، ذات تخترقها التناقضات والصراعات التي تسعى للعبور من خلال المحكي إلى الحياة، وأخيرا سارد يجد نفسه مورطا بين الواقع والتخييل.

-خلاصة وتركيب :

يدعونا السرد إلى أن نزل أنفسنا المكانة الملائمة لنا، في هذا العالم، وذلك بأن نتقاسم وإياه محكياتنا، كما يقول بورييس سوريلانك. إن فعل السرد يسمح لنا بأن نتحدد كذات تعبر عن نفسها بواسطة ضمير المتكلم، ولكن نتحدد كذلك باعتبارنا فردا منخرطا في حكاية جماعية. وهكذا، فإن "دفاتر الحافلة" للأستاذ عبد الله ساعف، هي سعي مشروع لاستعادة التجربة وعيشها سرديا في كل ملاحظاتها الإيجابية أو السلبية. السرد ثورة على الخوف والتردد. الحافلة كناية كبرى عن روابط وصلات متعددة لإعادة الاندماج، كما أنها إمكانية لإعادة تصوير عناصر من التاريخ المتنامي من خلال منظور سردي جديد.

وبهذا الاختيار، يكون عبد الله ساعف قد خلق فضاءا للتخييل، فممكن محكي الحياة (الذات) من بناء الواقع مجددا، ومن جعل الذات مرئية جدا بالنسبة للذات الساردة نفسها. على أن الهدف الأسمى، من هذا النوع من المعرفة السردية، البحث في الوصول إلى أقصى درجات الحرية.

صدر حديثا عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط

